

# أخبار الأدب

## الباحث عن الجديد

6 يوليو 2008

د. محمد عفيفي

ينتمي رءوف عباس فكراً إلى جيل الستينات . هذا الجيل الذي ترك بصماته على تاريخ وتطور مصر بشكل عام.

ويمكن تلمس ملامح هذا الجيل من خلال مجموعة الدراسات الهامة التي خرجت في مجال التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي سواء لرءوف عباس أو عاصم الدسوقي أو علي بركات. وأيضاً في مجال التاريخ السياسي ليونان لبيب رزق وعبد العظيم رمضان وعبد الخالق لاشين . أو حتى في مجال التاريخ العثماني لعبد الرحيم عبد الرحمن . هذه الدراسات في الحقيقة ستكون نقطة تحول لمعظم الدراسات التاريخية بعد ذلك . وسيكتب لهذا الجيل – الذي نفقده الواحد بعد الآخر – أن يكون بمثابة الموجه الروحي للمدرسة التاريخية لعشرات السنين بعد ذلك.

وهناك علاقة وثيقة بين خيارات المؤرخ في البحث التاريخي وقناعاته وانحيازاته الفكرية ، مهما تحدثنا عن الموضوعية والتجرد من الذاتية عن البحث التاريخي . من هنا لم يكن غريباً أن يختار رءوف عباس " الحركة العمالية في مصر " موضوعاً لرسائله للماجستير ، وسواء عاد ذلك إلى أصوله العمالية كما صرح لي هو من قبل ، أو بحكم طبيعة المناخ السياسي والأيدولوجي لسنوات الستينات ، أو حتى انحيازات رءوف عباس السياسية، إلا أنه في النهاية خرجت لنا دراسة هامة ورائدة عن هذا الموضوع وسرعان ما كتب رءوف عباس شهادة ميلاده كمؤرخ بنشر هذه الرسالة في شكل كتاب في نهايات الستينات.

وانحيازاً لقناعاته الفكرية اختار رءوف عباس موضوع الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر لرسالة الدكتوراه لبيتوج رءوف عباس كعمدة لدراسات التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في مصر.

وكان حلم رءوف عباس إعداد دراسة علمية تاريخية مع تأطير نظري لتطور المجتمع المصري في القرن التاسع عشر . هذا القرن الذي كان يعتبره نقطة التحول والتحديث في تاريخ مصر . ولهذا وجه معظم تلاميذه الأوائل لدراسة التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي لهذا القرن.

ولكن رءوف عباس لم يصدر هذه الدراسة بل وتغيرت قناعاته عن القرن التاسع عشر والتحديث ، بعد إشرافه على العديد من الرسائل الجامعية حول الفترة العثمانية السابقة على القرن التاسع عشر . وبدأ رءوف عباس في مراجعة فكرة التحديث من جذورها وهل التحديث في القرن التاسع عشر كان تحديثاً أم إصلاحاً أم تبعية . انتهى رءوف عباس إلى إننا لا يمكن أن نفهم تاريخ القرن التاسع عشر إلا بدراسة الفترة السابقة . ومال في أواخر أيامه إلى فكرة الاستمرارية في تاريخ مصر الحديث ، وعدم القطيعة بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وأن الجديد يولد دائماً من رحم القديم.

هكذا كان رءوف عباس متجدداً دائماً ، مراجعاً لدراساته وكتابات الآخرين ، باحثاً عن الجديد دائماً ، حتى لو كان هذا الجديد لؤلؤة المستحيل.